فهم الإسلام وعرضه والدعوة إليه

فهم الإسلام وعرضه والدعوة إليه

آية الله السيد محمد باقر الحكيم

رئيس المجلس الأعلى - العراق

بسم الله الرحمن الرحيم

تمهيد:

مشكلات الأمة الإسلامية.. (نظرة عامة من الداخل)

لاشك انّ الرسالة الإسلامية هي الرسالة الخاتمة للرسالات الالهية، وهذا يعني انها أكمل الرسالات الالهية التي جاء لهداية البشرية الى الله تعالى وحل الاختلافات القائمة بين أبنائها وطوائفها. كما انها هي الرسالة الخالدة التي تتحمل مسؤولية معالجة مشاكل الانسانية وآلامها في مختلف العصور والازمان وهي في الوقت نفسه رسالة شاملة في نظرتها للحياة وآفاقها وابعادها ولا تختص بجانب دون آخر منها ومن ذلك الأبعاد السياسية والاجتماعية والاقتصادية والعقائدية والاخلاقية والروحية والسلوكية.

وقد أصبحت هذه القضية من الوضوح لدى المسلمين بدرجة عالية ليس من خلال تجربة القرون الماضية من الحكم الإسلامي فحسب بل من خلال تجربة الانتكاسة في المجتمع الإسلامي عند سقوط الدولة الإسلامية ومحنة المسلمين بالنظريات المادية الغربية والشرقية والأنظمة الوضعية ومحاولات التحريف والزيغ الذي مرت بالعالم الإسلامي في هذا القرن.

فكانت النهضة الإسلامية والإنابة الى ا تعالى والرجوع الى الإسلام بهذه الصورة الواسعة أحد الأدلة الواضحة على عمق الوضوح والفهم لهذه الحقيقة والايمان بها والتطلع الى الإسلام ورؤيته الى الاشياء والقضايا في معالجة المشكلات في القرن الآتي.

ولكن وضوح هذه الحقيقة العامة والايمان بها لا يكفي وحده في تقديم العلاج لقائمة المشكلات الطويلة التي نشاهدها عادة في تفاصيل حياتنا الإسلامية وتتزايد باستمرار كلما تقدم الزمن بنا وتطلعنا الى المستقبل.

وانما نحتاج دائماً الى عملين رئيسيين متوازيين ومتكاملين.

أحدهما: تشخيص المحاور الرئيسية لمشكلات الأمة الإسلامية والتي تتشعب عنها الكثير من القضايا والامور ومعرفة مفاتيحها المركزية والرجوع بالتفاصيل الى اصولها ومصادرها الاساسية من اجل ان نهتدي الطريق الى الحل والمعالجة ولئلا نضيع في التفاصيل أو ننشغل بالجزئيات عن الكليات وبالمهم عن الأهم.

وثانيهما: الارادة القوية والعزم الراسخ والاستقامة في العمل الجاد المتواصل لمعالجة هذه المشكلات

لان منهج الحياة في هذه الدنيا كما وضعه الله تعالى هو الكدح والامتحان والبلاء والجهاد في سبيل الله (يا أيّها الانسان انك كادح الى ربك كدحاً فملاقيه) (الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيّكم أحسن عملاً) (أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون) (ولا يلقاها إلاّ الذين صبروا ولا يلقاها إلاّ ذو حظ عظيم) (والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا).

ولأنّ تكامل الانسانية ورشدها ووصولها الى الله تعالى والكمالات الالهية مرهون بهذه الارادة والعزم والجهاد في سبيل الله والاستقامة على طريقه تعالى (ان الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألاّ تخافوا ولا تحزنوا وابشروا بالجنة التي كنتم توعدون نحن أولياؤكم في الحياة الدنيا وفي الآخرة..).

مشكلات الأمة الرئيسية من الداخل:

وبصدد (العمل الأول) فانّ المحاور الرئيسية للمشكلات العامة لامتنا الإسلامية من داخلها يمكن تلخيصها بالأمور الخمسة التالية:

1- فهم الإسلام وعرضه ومعرفة مناهج وأساليب معالجته للمشكلات الداخلية والدعوة إليه ومواجهته للهجوم والعدوان الداخلي.

2- التجسيد والتطبيق العملي للحريات الأساسية في الحياة الاجتماعية وايجاد المصداق الخارجي الصحيح لعلاقة الحاكم بالرعية والإمام بالأمة.

3- إقامة العلاقات الانسانية الاجتماعية في أوساط الأمة وفي مقدمتها علاقات الاسرة والمرأة بالرجل، وقضايا الشباب.

4- تحقيق العدالة الاجتماعية ومعالجة قضية الفقر والغنى واقعياً.

5- بناء وحدة الأمة الإسلامية على أساس متين ووقاعي وتفجير طاقاتها وتوظيف امكاناتها في اقامة صرح هذا البناء.

ويمكن إرجاع بقية المشاكل الى هذه المحاور الخمسة اذا استثنينا القضايا العقائدية والروحية الاخلاقية وهما قضيتان ترتبطان بالخط الآخر من العمل وهو الارادة والعزم.

مشكلات الأمة الرئيسية من الخارج:

وامّا المشكلات من الخارج فيمكن تلخيصها في محورين رئيسيين:

الأول: الاستكبار العالمي المدعوم بالقوة المادية الهائلة والتقدم العلمي والمؤسسات العالمية الاقتصادية والعسكرية والسياسية والثقافية ومنها الصهيونية العالمية والحركات التبشيرية.

الثاني: الحضارة المادية القائمة على أساس تعبئة الغرائز الانسانية وتأليه الشهوات والميول الذاتية وعبادة الهوى وبناء الحياة الانسانية وتسخير طاقاتها الخلاقة وامكاناتها العظيمة على أساس الاستجابة لنداء هذا الهوى والميول والشهوات، بدلاً من الاستجابة لنداء الإله الواحد الأحد وتكامل الروح الانسانية ومتطلبات الدار الآخرة.

الإرادة القوية للجهاد:

وبصدد (الخط الثاني من العمل) وهو الارادة القوية والعزم الراسخ في السعي والجهاد والعمل فانه لاشك بأنّ الدور الاساس في ذلك هو لعقيدة التوحيد بكل أبعادها وتفاصيلها وللروح المعنوية العالية المتمثلة بالخلق الإسلامي الرفيع والقيم والمثل الاخلاقية وما يعبّر عنه اخلاقياً بجهاد النفس أو (الجهاد الأكبر).

وقضية العقيدة والأخلاق ـ وهي من المشاكل الرئيسية في الحياة الانسانية ـ وان كانت ترتبط بمحور فهم الإسلام ومعرفة اساليبه في معالجة المشكلات الانسانية إلاّ أن هذا الارتباط بهذا المحور إنما هو على المستوى النظري.

وأما المستوى التطبيقي والعملي الذي يشكل القضية الأساس في هذا الخط الثاني العملي فهو شيء آخر له علاقة بمهمة ومسؤولية كبيرة تحمّلها الأنبياء وهي مسؤولية (التزكية) و(التطهير) كما ورد التعبير عنها في القرآن الكريم في عدة مواضع.

وهي مهمة غير التعليم أو تلاوة الآيات وابلاغها وتوضيحها للناس.

فالايمان ليس مجرد اكتشاف للحقيقة ومعرفة بالواقع وإنما الايمان هو درجة عالية من الالتزام النفسي والتطبيق العملي والتسليم في المواقف والسلوك والرضا بقضاء الله والقدر وبما اختار الله تعالى لهذا الانسان.

والاخلاق ليست مجرد سلوك يمارسه الانسان في حياته اليومية بل هي صفات روحية ومعنوية تتسم بالثبات والاستقرار والاستقامة والقدرة على مواجهة الضغوط وتحملها وتذليل الصعاب واجتياز العقبات.

وهذا الجانب العقائدي والاخلاقي في حياتنا الاجتماعية يمثل أهم قضية ومشكلة على الاطلاق في مواجهة التحديات المعاصرة وينسحب على جميع القضايا وحل المشاكل الاخرى بدون استثناء ويكوّن الأساس القوي والراسخ لها.

ولابد ان نعطيه القدر الكافي من الاهتمام والأولوية في فهمنا للمشاكل وفي تخطيطنا لحلها وفي قدرتنا على معالجتها.

كما ان لهذا الجانب أثره في مواجهة المشكلات الداخلية للأمة الإسلامية والمشكلات الخارجية لها معاً.

وسوف احاول في بحثي المختصر هذا أن أتناول بصورة عامة الموضوع الأول من هذه المحاور الرئيسية للمشكلات الداخلية وهو (فهم الإسلام وعرضه والدعوة إليه) علماً بأن الموضوعات الثلاثة الأولى وهي (فهم الإسلام، التطبيق العملي للحريات الإسلامية، والعلاقات الانسانية الاجتماعية ـ الاسرة والمرأة والشباب ـ) لها أهمية خاصة لان الموضوعين الآخرين هما من الموضوعات التي تم تناولها بصورة واسعة في المؤتمرات السابقة والأبحاث العديدة لعلماء ومفكري المسلمين.

مضافاً الى ان الموضوعات الثلاثة المشار إليها لها تأثير مباشر وكبير على الموضوعين الآخرين اذا أخذنا بنظر الاعتبار ما تتمتع به الأمة الإسلامية في بلادها من امكانيات ذاتية واسعة سواء على مستوى الموارد الطبيعة الاقتصادية او القوة البشرية او المضمون الحضاري او الموقع الجغرافي او الجذور التاريخية في الحياة الاجتماعية والثقافة الانسانية والعلمية مما يجعل حلول المشكلات الاخرى ذات علاقة بصورة مباشرة وأكيدة مع هذه الموضوعات الثلاثة الاولى.

وموضوع (فهم الإسلام) لاشك انه سوف يساهم بصورة أساسية وحاسمة في معالجة مشكلة الاختلاف وتعطيل طاقات الأمة الإسلامية او تبديدها لانّ الاختلاف في الأمة يمكن ارجاعه الى سببين رئيسيين:

أحدهما: الاختلاف في فهم الإسلام وعرضه وهو أمر يرتبط بالموضوع الأول.

والآخر: الاوضاع السياسية والنفسية التي تعيشها الأمة الإسلامية.

وهذا السبب يرتبط ـ أيضا ـ بصورة أساسية بالموضوع الثاني والنظام الإسلامي وعلاقات الحاكم بالرعية.

كما ان معالجة موضوع الاختلال في موازنة العدالة الاجتماعية ووجود ظاهرة الفقر والحاجة يعتمد بصورة أساسية على الموضوع الأول والثاني، لانّ اسباب الاختلال في الموازنة لا ترجع ـ بنظر الإسلام ـ الى قلة الموارد الطبيعية والامكانات الذاتية كما تشير الى ذلك الآية الكريمة في قوله تعالى:

(ا الذي خلق السماوات والأرض وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقاً لكم وسخّر لكم الفُلك لتجري في البحر بأمره وسخّر لكم الأنهار وسخّر لكم الشمس والقمر دائبين وسخّر لكم الليل والنهار وآتاكم من كل ما سألتموه وان تعدّوا نعمة ا لا تحصوها ان الانسان لظلوم كفّار)«ابراهيم 32 ـ 34».

بل يرجع بصورة أساسية الى سوء التوزيع وعدم الاستجابة الى الحكم الشرعي في الانفاق كما يشير الى ذلك الحديث الشريف المعتبر في باب الزكاة عن الإمام الصادق عليه السلام (انّ ا عزّ وجل فرض للفقراء في مال الأغنياء ما يسعهم ولو علم انّ ذلك لا يسعهم لزادهم انهم لم يؤتوا من قبل فريضة ا عزّ وجل ولكن اوتوا من منع من منعهم حقهم لا مما فرض ا لهم ولو انّ ُ الناس أدوا حقوقهم لكانوا عايشين بخير) ([1]).

فهم الإسلام وعرضه والدعوة اليه

لقد بذل علماء المسلمين من جميع المذاهب الإسلامية جهوداً كبيراً ـ في مختلف أدوار التاريخ الإسلامي ـ في استنباط الحكم الشرعي والفكر الإسلامي والثقافة الإسلامية بجميع ابعادها والّفوا في ذلك الكتب ودوّنوا الموسوعات والأبحاث والمقالات في مجالات المعرفة الإسلامية المتعددة وذلك على أساس تفسير القرآن الكريم وضبط وتدوين السنّة النبوية الشريفة والأدلة الاخرى التي اعتمدوها عند غياب القرآن والسنّة في هذه العملية الواسعة وقدّموا الاجابات المتعددة والكثيرة في الموضوعات الفكرية والثقافية والشرعية والفلسفية والحقوقية وحاولوا ان يجدوا حلاً لمختلف المشاكل التي واجهها المسلمون في العصور الماضية والعصر الحاضر على أساس الفكر الإسلامي.

ولكن نجد ـ بالرغم من كل هذه الجهود العظيمة والمساعي المشكورة والقيمة ـ انّ هناك مجموعة من المشاكل المهمة برزت أمام انجاز هذه العملية الواسعة التي تزداد تعقيداً كلما تقدم بنا الزمن وابتعدنا عن عصر الرسالة الإسلامية من ناحية وواجهنا التحولات الاجتماعية والسياسية والجغرافية من ناحية اخرى ولازالت هذه المشاكل تلقي بظلالها الثقيلة على انجاز هذه العملية في العصر الحاضر وفي المستقبل بحيث تشكل تحدياً كبيراً للاسلام في القرن الآتي وهذه المشاكل هي:

المشكلة الأولى: المصادر التي يعتمد عليها استنباط الإسلام ومعرفته:

ولاشك أن القرآن الكريم والسنّة النبوية يشكلان المصدرين الأساسيين اللذين لايوجد فوقهما مصدر آخر في نظر جميع المسلمين.

ولكن القرآن الكريم واجه مشكلة التفسير والتأويل بعد الاجماع المطلق للمسلمين على سلامة نصه وحفظه من الزيادة والنقصان وهي مشكلة واجهها منذ عهد الرسول «ص» كما تشير الى ذلك الآية الكريمة من سورة آل عمران (هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات فأما الذين في قلوبهم زيغ يتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله وما يعلم تأويلها إلاّ ا والراسخون في العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا)«آل عمران/7».

كما واجهت السنّة مشكلة عدم التدوين ومحاولات الوضع والتزوير والفاصل الزماني الذي يفصل بيننا وبين رواتها مضافا الى مشكلة فهمها وتفسيرها وتأويلها.

وبالرغم من الجهود المبذولة العظيمة في معالجة هذه المشاكل وتحديد آثارها ولكنها بقيت كمشاكل حقيقية تحتاج الى عمل علمي مشترك وارادة وعزم قويين قادرين على تجاوز السدود النفسية وردم الهوة المعنوية الواسعة الموجودة بين مناهج ومقاييس وضوابط التعامل مع هذين المصدرين الرئيسين.

ويزيد الموضوع اشكالاً اختلاف الموقف تجاه مصدر آخر للحكم الشرعي اعتمد بين جماعة كبيرة من علماء المسلمين والمذاهب الإسلامية وهو مصدر العقل وتفسيره وحدود فاعليته والرجوع اليه.

ولاشك ان حركة التقريب بين المذاهب الإسلامية والتفتيش عن القواسم المشتركة والابحاث المقارنة والندوات والجهود العلمية الموحدة التي تعتمد على المنطق والبحث عن الحقيقة وتلتزم بالضوابط العلمية المقرّة سوف يكون لها دور كبير في معالجة او التخفيف ـ على الأقل ـ من حدة المشكلة ولكن اعتقد اننا بحاجة الى حركة علمية مشتركة مدعومة بموقف روحي ايماني وارادة قوية للرجوع مرة اخرى الى القرآن الكريم والمتفق عليه من السنّة النبوية لاستنباط واستكشاف منهج علمي قرآني عام نتعامل من خلاله مع هذه المشاكل ذات الجذور العميقة لنواجه التحديات في هذا العصر.

ولاشك اننا سوف نتبين انّ لمفردة أهل البيت عليهم السلام الذين يحظون باحترام خاص وشامل لدى علماء المسلمين ويمثلون الثقل الآخر للقرآن الكريم دور مهم في محاولة التغلب على هذه المشكلة لاسيما وان المؤسسات العلمية التي أسسها أهل البيت وأقاموا أركانها على دعائم قوية لازالت قائمة ومستمرة في عملها ونشاطها منذ أيامهم وحتى يومنا الحاضر دون أن تتعرض الى أضرار الاختراق او التحريف او التسلط والضغوط الخارجية.

ومن جانب آخر يعتبر موضوع مايمكن ان نسميه بعلاقة الزمان والمكان بالنص والحكم الشرعي من أهم الموضوعات ذات العلاقة بهذه المشكلة ايضاً لاننا وان كنا نؤمن بصورة جازمة لاشك فيها ولاريب بأن الرسالة الإسلامية خالدة وأن حلال محمد حلال الى يوم القيامة وحرامه حرام الى يوم القيامة. ولكن هناك اعتقاد يقول بأن الحكم الشرعي جاء متطابقاً دائما مع المصلحة والمفسدة في الأمر والنهي وأنه ليس منفصلا عنها ومن ثم فتصبح قضية الزمان والمكان والمصالح والمفاسد المتحركة فيهما لها علاقة في فهم الحكم الشرعي واستنباطه.

وتصبح قضية تزاحم هذه المصالح والمفاسد أحياناً وتشخيص الأهم من المهم منها وتقديم الأول على الثاني من القضايا المهمة ذات العلاقة بمعرفة الحكم الشرعي والموقف العملي تجاه الاحداث والظواهر ويدخل ذلك في تشخيص موضوع الحكم الشرعي وشروطه وهو من الامور ذات العلاقة بالخبرات والتجارب العلمية والاجتماعية كما هو في الوقت نفسه له علاقة بتشخيص اتجاهات النص الشرعي وفهم روحه العامة ومعرفة رؤية الإسلام الى تشخيص المهم والأهم.

وهذا الموضوع قد يجرنا الى أهمية التفكير في اعتماد منهج التخصص في الاجتهاد والتأكيد على اهمية ان يصبح المجتهد مختصا في باب من أبواب الفقه وان يكون من أهل الخبرة ايضاً ـ ولو بمستوى القدرة على التشخيص ـ في التجارب العلمية والاجتماعية ذات العلاقة بموضوع تخصصه الفقهي.

المشكلة الثانية: المنهج في الاستنباط وفهم الإسلام واستكشافه. فان فهم الإسلام ومعرفته بعد تشخيص مصادره يحتاج الى التزام منهج في عملية الاستنباط يوصل الانسان الى استكشاف الفكر الإسلامي والوحي الالهي والحكم الشرعي. اذ ان الاجتهاد ليس اختراعاً ولا ابداعاً ولا خلقاً للمواقف وانما هو عملية استكشاف للفكر والحكم واستنطاق للقرآن الكريم والسنّة والتعرف على الأجوبة والحلول التي قدمها الإسلام في رسالته الكاملة لكل الاسئلة والمشاكل التي يثيرها الواقع الموضوعي لحياة الانسان الفردية والاجتماعية وتفسير الظواهر الكونية العامة والاجتماعية على الحقيقة التي قدمها الإسلام في عقائده واحكامه.

وهذه العملية تحتاج الى منهج مضبوط للوصول فيها الى الحقيقة كما هو الحال في جميع القضايا الاستكشافية.

وهنا نلاحظ انه قد برزت أمام هذا المنهج المطلوب عدة قضايا ومعوقات تحتاج الى معالجتها والتغلب عليها والوصول فيها الى موقف مشترك او متقارب، أشير الى ثلاثة قضايا منها.

الاولى: قضية إعتماد:

ـ منهج الاجتهاد المضبوط بالقواعد والاصول والمستنبطة من القرآن الكريم.

ـ أو منهج الرأي واستخدام العقل الانساني على مستوى الاستحسان والعنصر الذاتي الذي يتمتع به المجتهد في مذاقه الاجتماعي وترجيحه الخاص للمصالح والمفاسد المرسلة.

او منهج الجمود على النص الشرعي ومداليل الألفاظ والالتزام بالمصاديق المعاصرة لصدور النص او التي قدمها لنا الصحابة الأبرار في فهمهم للشريعة والإسلام.

ولازال العالم الإسلامي ينقسم حتى يومنا الحاضر بصورة واخرى الى اعتماد هذه المناهج الثلاثة التي قد يقترب بعضها الى آخر بحيث يصعب التمييز بين حدودها، وقد يفترق بحيث يصبح احدها مثاراً للشبهة والاتهام بالخروج عن الطريق السوي بل وحتى الاتهام بالخروج عن الإسلام.

ولاشك ان هذا من اهم التحديات والمشاكل التى نواجهها في هذا العصر الذي اصبح منفحتاً في كل تفاصيله على مختلف الاحتمالات والتصورات والثقافات.

ولدي اعتقاد عميق ـ وا العالم ـ أننا بالرجوع الى القرآن الكريم والقواسم المشتركة الاخرى وبالارادة القوية والبحث العلمي المتواصل المشترك يمكننا التوصل بأذن ا الى اعتماد منهج واضح في الاستنباط.

الثانية: قضية ما يمكن ان اصطلح عليه بفقه التجزئة او فقه النظرية.

فلقد عاشت الأمة الإسلامية في احضان الإسلام طيلة ثلاثة عشر قرن من الزمن وكانت تستلهم الإسلام وتتعرف على روحه وتفاصيله ليس من خلال الثقافة الإسلامية التي يقدمها علماء الإسلام فحسب بل من خلال المعايشة مع الحكم الشرعي والشعائر الإسلامية والآداب والعلاقات الدينية الموروثة التي تحولت الى سلوك عام لدى أبناء الأمة... الى غير ذلك من الاسباب ذات العلاقة بالتطبيق والمجتمع وكانت عملية الاستنباط الشرعي تواكب تفاصيل الاحداث وجزئيات الظواهر التي تبرز في ثنايا المجتمع الإسلامي فتعالجها جزئياً الى جانب المعالجة الشاملة في التطبيق.

ثم انهارت الدولة الإسلامية وتسلط الكافر المستعمر على مقدرات المسلمين وفرضت عليهم الثقافة الغربية ليس في مفاهيمها وافكارها فحسب بل في آدابها ورسومها وممارساتها وبذلك اصبحت الأمة محرومة

على مستوى العطاء من الفكر والثقافة الإسلامية ومن الممارسة الإسلامية الواقعية والتجسيد والمصداق الخارجي وأصبح كل شيء من الكليات والتفاصيل مهدداً ويعتريه الغموض والابهام والشك والريب واصبح الارتباط بين الجزئيات والتفاصيل غير واضح وقد يقع ما يبدو انه تناقضا وتضادا فيما بينها ولم يعد يكفي لمعالجة هذه المشكلة الاجابة على الجزئيات والتفاصيل بعد ان انفرط عقد الارتباط بينها سيما وان الثقافة البديلة على اختلاف مناهجها قدمت بصورة نظريات كلية وجامعة ترتبط بها الجزئيات والتفاصيل.

وهنا تبرز الحاجة الجديدة التي لم تتم الاستجابة اليها بصورة مناسبة بالرغم من بعض المحاولات الرائدة.

وهذا الحاجة ترتبط بتقديم الإسلام على شكل نظريات شاملة نستنبطها من مصادره الاصيلة نظريات في الاجتماع والاقتصاد والسياسة والاسرة والتاريخ والادارة... الى غير ذلك من المجالات والمفردات وهو ما يمكن ان نعبر عنه بفقه النظرية وبدون ذلك فسوف نواجه فراغاً كبيراً في مواجهة التحديات والاجابة على الأسئلة وفي عرض الإسلام والدعوة اليه واقناع الآخرين وفي صد الهجوم المعادي الى غير ذلك من المشكلات العديدة.

وبهذا الصدد يمكن ان أشير الى العمل الرائد في هذا المجال الذي قام به استاذنا آية الله العظمى الشهيد السعيد المظلوم السيد محمد باقر الصدر في كتبه اقتصادنا وفلسفتنا والبنك اللاربوي والإسلام يقود الحياة والاسس المنطقية للاستقراء وفي بعض أعماله الفقهية الاخرى التي حاول ان يُبين فيها استنباطه على أساس فقه النظرية.

كما ان لمحاولات الشهيد آية الله الشيخ المطهري في التاريخ والاجتماع وعلم الكلام موقع خاص في هذا

المجال.

الثالثة: قضية الثابت والمتحرك من الاحكام الإسلامية:

لقد جاء الإسلام لمعالجة قضايا الانسان بجميع ابعادها وتفاصيلها وكان الرسالة الخاتمة وفي الانسان قضايا وحاجات ثابتة ودائمة وفيه قضايا متحركة ومتغيرة.

وقد مارس النبي صلى ا عليه وآله كلا الامرين لانه كان الرسول المبلّغ للرسالة والحاكم العدل في تطبيقها وسيرتها وانطلاقاً من ذلك برزت ظاهرة النسخ في الشريعة الإسلامية وظاهرة الاطلاق والعموم ثم التخصيص والتقييد فيها وظاهرة المواقف المتحركة مثل الكف عن القتال مثلاً ثم الأمر به وغير ذلك من الموارد.

وبسبب ذلك برزت مشكلة كبيرة في فهم الإسلام هي مشكلة التمييز بين الثابت والمتحرك من الاحكام الإسلامية.

وهي مشكلة لابد من معالجتها في هذا المجال (مجال فهم الإسلام واستنباط أحكامه) ووضع الضوابط لها لانه بدون ذلك قد تصبح قاعدة (حلال محمد حلال الى يوم القيامة وحرامه حرام الى اليوم القيامة) مهددة عندما نسمح بفتح البابا أمام حركة النص والحكم الشرعي واخضاعه للظروف والمكان والزمان بصورة مطلقة أو تصبح عقيدة ان الرسالة الإسلامية هي الرسالة الخاتمة الدائمة... مهددة بعد ملاحظة واقع الحياة الانسانية وتطوراتها الواسعة والعميقة بحيث لا تسمح بفرض صيغة واحدة مفصلة وشفافة لجميع

تفاصيل الحياة على ان تبقى هذه التفاصيل بالصيغة نفسها الأمر الذي يكاد أن يرفضه الوجدان الانساني وقضية تطور حركة الرسالات الالهية... وقد عالجت هذا الموضوع في العام الماضي في بحث خصائص الرسالة الإسلامية.

ومن هنا فلابد من مواجهة هذه المشكلة على أساس هذا الفهم الذي التزمه علماء الإسلام قاطبة أما عملياً كما هو الأكثر في الواقع الخارجي أو نظرياً وعملياً في ترجمتهم للاسلام.

ان التمييز بين الثابت والمتغير من القضايا الهامة في منهج فهم الإسلام ولكن التمييز بينهما أمر صعب يحتاج الى بحث علمي مشترك يلتزم بالاسس والضوابط الإسلامية التي أشرنا إليها في المنهج والاستنباط من ناحية ويضع القواعد الأساسية للتمييز بينهما لئلا تصبح القضية مفتوحة أو مغلقة بحيث تهدد الرسالة الإسلامية أو قدرتها على مواجهة التحديات المستقبلية.

وكلما زادت الحياة تعقيداً في تفصيلاتها كلما أصبحت هذه القضية هامة ومعقدة.

ولعل من أهم المداخل لهذا التمييز هو بذل الجهود العلمية لتشخيص الحاجات الثابتة الانسانية على طول خط التاريخ والحاجات المتحركة والتي يمكن استنباطها من القرآن الكريم والسنّة النبوية المتفق عليها.

كما أن من أهم المداخل لذلك هو متابعة تفاصيل المتغيرات في الاحكام الإسلامية في عهد النبوة ونزول القرآن الكريم والفصل فيها بين الاحكام الشرعية الثابتة في كل الظروف والاحكام الشرعية المتغيرة

بسبب اختلاف الظروف والتعرف على النظرية والعناصر المشتركة فيها للخروج برؤية واحدة تقوم على أساس التمييز بين الحكم الشرعي الالهي والحكم الشرعي الولائي الصادر من النبي «ص» باعتباره حاكماً وولياً للأمر وقد كان المسلمون يرون هذا الفرق في هذه الاحكام في عهد الرسول ويطرحون السؤال عليه بهذا الصدد وكان بعض المنافقين يثيرون الشبهات حول القوة الاجرائية لهذه الاحكام الولائية الأمر الذي دعا القرآن الكريم الى تأكيد قوتها الاجرائية بالرغم من كونها احكاماً ولائية (أطيعوا الله واطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم) (وما ارسلنا من رسول إلاّ ليطاع بأذن الله) (ومن يطع الرسول فقد أطاع الله...).

ولعل من أهم المداخل الى هذا التمييز هو متابعة المتغيرات في الرسالات الإلهية تجاه قضايا المجتمع الانساني وادارة الحياة فيه ومقارنتها بالقضايا الثابتة فيها وذلك بعد ملاحظة الامور التالية التي قد تضيّق هذا المدخل الى حد بعيد.

1- ان مصادرنا لتفاصيل موقف الرسالات السابقة في الثوابت والمتغيرات محدودة جداً اذ لم يتعرض القرآن الكريم إلاّ لعدد قليل منها ولم تتناول السنّة المتفق عليها إلا القيل النادر.

2- قضية تطور الرسالات الالهية في معالجة قضايا تجسيد العقيدة من خلال الشعائر والعبادات الامر الذي يجعلها صيغ ذات طبيعة توقيفية.

وهكذا التطور في الحياة الاجتماعية وانتقالها في دور الوحدة الفطرية الى دور الاختلاف والوحدة التشريعية.

3- خاتمية الرسالة الإسلامية من ناحية ومرحلية الرسالات الاخرى من ناحية اخرى واختلاط ذلك بما تعرضت له الرسالات الالهية من تحريف وتزييف الأمر الذي أضاع حدود المتغير مع الثابت الذي تعرض الى التحريف والتزوير.

إسلوب ومنهج العرض:

المشكلة الثالثة: في إطار فهم الإسلام وعرضه هي مشكلة الاسلوب في عرض مفاهيم الرسالة الإسلامية ولغة الخطاب العقائدي والثقافي والشرعي والادوات التي تستخدم في ابلاغ الرسالة وايصالها الى الناس ودعوتهم إليها ومواجهة الشبهات التي تثار حولها.

وقد كان هذا الموضوع ولازال من أهم الموضوعات في الدعوة الى ا تعالى وابلاغ رسالاته فلا يكفي في الرسالة ان تكون رسالة حق وهدى بل ولايكفي فيها ان تكون رسالة واضحة وبيّنة ومدعومة بالأدلة والبراهين والبيّنات حتى يؤمن بها الناس بل لابد الى جانب ذلك كلّه أن نتوسل في ايصالها الى الناس بأساليب البلاغة في الخطاب ومطابقة الكلام والحديث لمقتضى الحال (وما أرسلنا من رسول إلاّ بلسان قومه ليبيّن لهم)«ابراهيم / 4».

والقرآن الكريم وإن كان يمثل أفضل مرجع للمسلمين في معرفة هذه الاساليب والمناهج لانه قد مرّ في بيان الرسالة بمراحل عديدة مرّت بها الدعوة الإسلامية مرحلة الاستضعاف والمواجهة والقدرة كما انه خاطب جماعات مختلفة من المشركين وأهل الكتاب والمنافقين والمستضعفين والمستكبرين وأهل المدينة والأعراب فضلاً عن المؤمنين والصالحين وفئات المجتمع الاساسية من الرجال والنساء والشبان والشيوخ والفتيان... وكان القرآن الكريم يمثل الخطاب العقائدي والاخلاقي والثقافي والسياسي والشرعي للرسالة ويواكب هذه الاحداث ويعالجها ومن هنا فهو يمثل ثروة عظيمة في هذا المجال.

ولكن نلاحظ بهذا الصدد:

أولاً: ان هذا الموضوع لم يعط في الدراسات القرآنية والدعوتية المستوى المناسب لأهميته بالرغم من الجهود المشكورة التي بذلها بعض علماء المسلمين والدعاة الى الله تعالى في هذا المجال ولذا نحن بحاجة الى دراسات مكثفة وتفصيلية منهجية واجتماعية ونفسية تتناول هذا الموضوع بتفصيل وشفافية، وعلى هذا الأساس فنحن بحاجة الى القيام بعملين رئيسيين في هذا المجال:

أحدهما: استنباط النظرية الإسلامية بصورة تفصيلية.

والآخر: القيام بعمل تطبيقي يربط النظرية بمصاديقها الخارجية في العصر الحاضر وهو ما يعبّر عنه القرآن الكريم بالتأويل أي تجسيد المصداق الخارجي للنظريات القرآنية بما يناسبها في كل عصر.

ثانياً: ان القرآن الكريم بالرغم من اختلاف الظروف والمراحل التي مرّ بها وبالرغم من تعدد وتنوع الجماعات التي خاطبها ولكن المجتمع الذي نزل فيه القرآن الكريم كان مجتمعاً بسيطاً للغاية من ناحية ومحدودة في حجمه وعلاقاته من ناحية اخرى كما هو محدود في ثقافته ومعلوماته وكذلك في طموحاته وتطلعاته وكل هذه الأمور كانت تجعل عملية العرض والخطاب وابلاغ الرسالة سهلة وميسورة الى حد كبير.

وأما في عالمنا اليوم فقد تحولت الكرة الارضية من خلال وسائل الارتباط وثورة الاتصالات واساليب الخطاب ولغاته الى قرية او مدينة بالغة التعقيد والتشابك بحيث اًصبح الخطاب القرآني صوتاً واحداً ضمن هذا الضجيج العالي (وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون).

اذن فلابدّ ان نتبين الوسائل التي يمكن من خلالها ان يعلو الصوت القرآني على هذا الضجيج وان ينفذ من خلاله الى أعماق هذا المجتمع المعقد وتفاصيله.

ولاشك ان الانطلاق في الخطاب من لغة الفطرة والعقل هما المنطلقان الافضل اللذين انطلق منهما القرآن الكريم لانهما يمثلان العناصر الثابتة في الشخصية الانسانية وكذلك التركيز على الدور الخطير للهوى والشهوات في حياة الانسان لأن ذلك يمثل عنصراً ثابتاً في التأثير السلبي على حياته، ولكن كل ذلك يجب ان يكون بعيداً عن الصيغ الجاهزة في الخطاب أو التقيّد بالأطر الكلامية والمصطلحات المفاهيمية.

ونحن وان كنا بحاجة الى استخدام المفاهيم والمصطلحات القرآنية والشرعية لتقريب المخاطبين إليها ولكن لا على أساس الالتزام في منهج العرض والخطاب الثقافي العام.

ثالثاً: الاهتمام بصورة جدية وأساسية بالوسائل العلمية ومنتوجات التكنولوجيا الحديثة في طريق ايصال الخطاب فانّ استخدام هذه الوسائل يدخل تحت العنوان الرئيس الذي اكّده القرآن الكريم وهو اعداد القوة (واعدوا لهم ما استطعتم من قوة) اذ ان اعدادها لا يختص بالقتال والحرب بل لابد ان يشكل كل الميادين وان كان مورد نزول الآية الكريمة هو الحرب.

ويؤكد ذلك الاهتمام البالغ الذي بذله رسول ا في اعداد الكادر المتعلم في صفوف المسلمين من خلال حركة التفقه في الدين (ما كان المؤمنون لينفروا كافة فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم اذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون).

وتطوير عنصر التدوين والنشر والحفظ للقرآن الكريم بالكتابة والاستظهار من أجل تعميمه على خلاف ما هو معروف عن الرسالات الالهية السابقة التي كانت محصورة في عدد محدود من الصفوة والحواريين.

وكذلك تطوير حركة الابلاغ من خلال ارسال المبلغين والرسائل.

وتطوير الشعائر الإسلامية كأداة للهداية والابلاغ من خلال صلاة الجمعة والعيدين لادامة الخطاب الثقافي والسياسي ومن خلال الحج لابلاغ القرارات الهامة والمضامين العامة... الخ.

فضلا عن الاستفادة من الوسائل القائمة في المجتمع آنذاك والتي كانت تستخدم بطريقة سيئة ومنحرفة كالشعر والقصة الى غير ذلك من المعالم التي نلاحظها في مطاوي حركة الرسالة الإسلامية التي كانت تعمل من أجل الاستفادة من كل الوسائل المشروعة وتطويرها والابداع في الوسائل الجديدة والاستفادة من كل الفرص المتاحة.

رابعاً: مراعاة الموازنة المطلوبة التي أكدها القرآن الكريم بين الحكمة والموعظة الحسنة (ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن ان ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين)«النحل / 125».

فالموعظة الحسنة هي مراعاة الخطاب الثقافي الرسالي لمشاعر الانسان وظروفه النفسية والحياتية ومستواه العقلي والمعرفي على خط محاولة التأثير في هذا الانسان وجذبه الى القبول بالرسالة والاقتناع بها انطلاقا من مبدأ وجود ما يدعو الانسان الى هذا القبول في داخل نفسه من فطرته وعقله

وان الرفض يستند الى تأثير العوامل المضادة التي تقوم الموعظة الحسنة بازاحتها وتعطيل تأثيرها.

والحكمة سواء فسرناها بالاخلاق العالية التي يجب ان يتصف بها الداعية من الصدق والصبر والشجاعة والايمان بالمستقبل والنصر...

او فسرناها بالقوانين والسنن الالهية ذات العلاقة بالحركة التأريخية وتغيير المجتمعات الانسانية التي تأتي في مقدمتها سنّة (انّ ا لا يغيّر ما بقوم حتى يغيّروا ما بأنفسهم).

فهي في كل الاحوال ضرورة من ضرورات ابلاغ الدعوة والرسالة الالهية فابلاغ الرسالة ليس مجرد وظيفة يقوم بها الانسان بل هي وظيفة مقيّدة بمنهجها واسلوبها واطارها وشأنها في ذلك شأن الصلاة التي هي وظيفة وواجب شرعي ولكن لايمكن أن تتم إلاّ من خلال صيغتها المقررة شرعاً من قيامها وركوعها وسجودها...

خامساً: ان هناك مسألة من اكثر المسائل تعقيداً واثارة وهي مسألة استخدام (القوة) في الدعوة الإسلامية وابلاغ الرسالة كما قد يبدو ذلك في بعض مراتب ودرجات الامر بالمعروف والنهي عن المنكر وفي الجهاد الابتدائي من اجل نشر الرسالة الإسلامية وفي بعض الاجراءات التعزيرية التي تتخذها الحكومة الإسلامية.

حيث انّ هذا الموضوع من اهم الموضوعات والتحديات التي تواجهها الرسالة الإسلامية في عرضها للاسلام وابلاغه.

ولابد من معالجة هذا الموضوع بعيداً عن الشعارات التي يطرحها بعض دعاة حقوق الانسان من قوى الاستكبار العالمي التي تبيح لنفسها في العصر الحاضر ان تستخدم القوة بأعلى مراتبها لفرض مبادئها وقيمها وصيغها الاجتماعية الخاصة، ولذلك وعلى أساس هذا المنطلق السياسي القائم يمكن ان نقول بأن الدين اذا كان صيغة اجتماعية كما يلتزم بذلك المتدينون فلماذا لا يسمح لهم ان يستخدموا القوة لفرضه مع ان الديمقراطيين يسمحون لأنفسهم باستخدام القوة لفرضها او منع ما ينافيها ويضادها؟!

ولكن يجب ان ننظر الى هذ القضية من بعدها الإسلامي والرسالي الذي يدخل في موضوع الحكمة من ناحية وفي موضوع حقيقة الدين ودوره في الحياة الانسانية من ناحية اخرى والحدود التي وضعها الشارع المقدس لهذا الاستخدام من ناحية ثالثة.

وهو امر نحتاج فيه الى الرجوع الى القرآن الكريم الذي هو أعلى مرجع لنا في فهم الإسلام وقد تناوله بشيء من التفصيل.

ولا اُريد هنا أن أصدر فتوى فقهية ولكن يمكن أن أطرح فكرة مستنبطة من القرآن الكريم تقول: بأن القوة لا تستخدم الاّ بعد استنفاد كل الوسائل الاخرى في الحكمة والموعظة الحسنة لابلاغ الرسالة الى الجماعة او الفرد، والاّ بعد ان يتبين انه لم يبق مانع لقبول الرسالة والسلوك الإسلامي إلاّ العناد والجحود وهو عامل نفسي لايمكن إزالته إلاّ بالقوة.

ويبقى تحديد هذه القوة واستخدامها بعد ذلك خاضعاً لتقدير ولي الأمر وموازنة الاهم والمهم والمصلحة والمفسدة والحدود الشرعية والمقرّة وهو أمر يدخل في باب الحكمة ايضا.

سادساً: ان الأسوة الحسنة والقدوة الصالحة والتجسيد الصحيح للاسلام في السلوك الفردي والاجتماعي ولاسيما للداعية او المؤسسات التي يرتبط بها أو الحاكم الإسلامي لها دور عظيم في ابلاغ الرسالة وعرضها وايصالها الى الافراد والمجتمعات وهي ان لم تكن أهم في التأثير من الخطاب اللغوي الثقافي فهي ليست بأقل منه في ذلك.

وقد أكد الإسلام هذا الاسلوب في المنهج وهو مما امتازت به الرسالات الالهية على الدعوات الوضعية بصورة عامة وأشار الى ذلك القرآن في عدة مواضع منه.

وتصبح قضية القدوة ذات أهمية في الرسالات الالهية ـ مضافاً الى تأثيرها النفسي المعروف من باب انّ الكلام اذا خرج من القلب دخل في القلب ـ من ناحيتين اخريين:

الأولى: ان مضمون الخطاب الرسالي الالهي يشتمل على عناصر من الكمال ذات بُعد قد يبدو لأول وهلة أنه مثالي وغير واقعي وتكون القدوة الصالحة حينئذ تعبيراً عن واقعية هذا الخطاب وامكانية تجسيده وايجاده في الخارج من خلال شخص القدوة الذي هو انسان يأكل الطعام ويمشي في الاسواق ويعيش مع الناس بلحمه ودمه وسلوكه العام.

الثانية: ان النفس البشرية فيها اتجاه فطري لحب الكمالات والاعجاب بها والانتماء إليها وعندئذ يكون ايمان شخص القدوة الصالحة بالرسالة الالهية وتحمله لمصاعبها وآلامها وارتباطه بها سببا مستقلاً لاقناع الكثير من الناس بصحة الرسالة نفسها وذلك لوجود البعد الغيبي في الرسالات الالهية وهو بعد غير مشهود ومحسوس للناس ولايمكن تجسيده لهم فيكون ايمان شخص القدوة بما فيه من كمالات بهذا البعد

دليلاً في نظر هؤلاء الناس على هذا البعد بما يشبه دلالة المعجزة عليه.

ولذلك لابد من الاهتمام في موضوع عرض الإسلام وابلاغ الرسالة من الاهتمام بصورة واسعة وجادة بهذا المنهج والاسلوب.

سابعاً: المحافظة في اسلوب الدعوة على موازنة بين الايمان باﷲ تعالى وبالغيب وبالرسالة الالهية وتأثيره في الهداية والتوفيق بقاعدة (انك لا تهدي من أحببت ولكن اﷲ يهدي من يشاء) (ومن يضلل اﷲ فلا هادي له) وبين الاسباب المادية المؤثرة في الدعوة التي أشرنا إليها في الحكمة والموعظة الحسنة، لانه (ما على الرسول إلاّ البلاغ).

وبهذا الصدد أؤكد عدة أمور رئيسية ومهمة:

أ ـ التوكل على اﷲ تعالى في الدعوة إليه والاستعانة به والطلب منه في إنجاح الدعوة وإيصال الرسالة في كل خطوة يخطوها الداعية الى اﷲ تعالى.

ب ـ الالتزام ببذل الجهد والوسع ومواصلة البلاغ بالحكمة والموعظة الحسنة والصبر على ذلك والاستقامة فيه دون كلل او ملل والخشية منه تعالى دون غيره حيث قد يفتح اﷲ على الداعية في نهاية المطاف الذي لايمكن للداعية وحامل الرسالة والبلاغ ان يدركه ويعرفه.

ج ـ الربط الدائم بين الهداية وأسبابها المتمثلة بالتوفيق الالهي من ناحية واخلاص الداعية من ناحية

اخرى والوسائل المادية المبذولة من ناحية ثالثة وأهلية وقابلية الفرد أو الجماعة لتقبل الدعوة الالهية من ناحية رابعة، حيث ان هذه العناصر يرتبط بعضها ببعض ارتباطاً وثيقاً وفهم الداعية لهذا الارتباط له دور مهم في الوصول الى الهدف من عرض الإسلام وتفهيمه للناس وابلاغه لهم.

نسأله تعالى ان يجعلنا من الدعاة الى ا والمبلغين لرسالاته وان يحقق النصر والفرج للمسلمين جميعاً ويجعل مستقبل أمورهم اقامة دولة الحق والعدل في كل الارض.

(وعد ا الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنّهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذين ارتضى لهم وليبدلنّهم من بعد خوفهم أمناً يعبدونني لا يشركون بي شيئا ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون)«النور55».

الهوامش:

([1]).الوسائل عن من لا يحضره الفقيه: ج 6 ص 3 حديث 1.